مفهوم المدرسة في الدرس النحوي العربي القديم والحديث

الباحثة: إيمان سيدي موسى

السنة الثانية دكتوراه

تخصص الدراسات اللغوية

جامعة الجزائر 02

الملخص: يعالج هذا المقال مفهوم المدرسة في الدرس النحوي العربي القديم والحديث حيث حاولنا الوقوف على مفهوم المدرسة النحوية قديما وحديثا في شقيها اللغوي والاصطلاحي مبينين في ذلك الاستعمال الأول لهذا المصطلح. وتطرقنا إلى نماذج من تقسيمات الدارسين للمدارس النحوية حيث وقفنا على تقسيمات القدماء والمحدثين لها، كما أشرنا إلى الأساس الذي اعتمده الدارسون في تقسيم المدارس النحوية.

الكلمات المفاتيح: المدرسة–البصرة – الكوفة–التقسيم.

The Summary:

This article treats the meaning of the school in the ancient and the new Arabic grammar lesson wherever we try to pause on the meaning of the grammar school in the two sides: the language and technical words which classify on that the first use to this technical word.

And we perretrate to examples from these divisions of grammatical school wherever we pause to the divisions of the ancient and the new on it and we signal to the basis that the students have depended on the division of grammatical schools.

مقدمة:

لقد عرف مصطلح المدرسة النحوية اختلافات كثيرة بين الدارسين، فالدرس النحوي ظهر في أقطار مختلفة من البلاد العربية مما نتج عنه تعدد الأفكار والرؤى وذلك حسب تعدد هذه الأقطار وقد مس هذا التعدد الدرس النحوي فحاول الدارسون أن يؤسسوا مدارس مختلفة تضم هذا التعدد. إلا أن الذي شد انتباهنا وحفزنا على البحث في هذا الموضوع هو الخلاف الذي دار حول تأسيس هذه المدارس والأسس التي بنيت عليها ولمعالجة هذا الموضوع وقفنا على التساؤلات التالية: ما مفهوم المدرسة عند الدارسين العرب؟ وما هي أشهر التقسيمات للمدارس النحوية؟ وما هي المعايير والأسس التي بنى عليها الدارسون تقسيماتهم للمدارس؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية آثرنا أن نحدد مفهوم المدرسة بين القدماء والمحدثين وبيان أول استعمال لهذا المصطلح، محددين أهم الآراء التي وردت حوله. كما رصدنا نماذج لتقسيمات الدارسين القدماء والمحدثين للمدارس النحوية حيث حاولنا من خلالها بيان أهم الخلافات الواردة بشأن هذه التقسيمات والمعايير التي بنى عليها الدارسون تقسيماتهم للمدارس النحوية.

1-تعريف المدرسة لغة واصطلاحا:

1-1 لغة: جاء في لسان العرب:" درس الكتاب يَدْرُسُه دَرْساً ودِرَاسَةً ودَارَسَهُ من ذلك كأنه عانده حتى انقاد لحفظهن وقد قرئ بهما وليقولوا دَرَسْت وليقولوا دَارَسْت وقيل دَرَسْتُ قرأت كتب أهل الكتاب ودَارَسْت ذاكرتهم، وقرئ: درَسْت ودرُست أي هذه الأخبار قد عفت وامَّحت ودَرُسَت

أشد مبالغة. وروي عن ابن العباس في قوله عز وجل:﴿ وكذلك نصرف الآيات﴾ وليقولوا درَسْت قال معناه: وكذلك نبين لهم الآيات من هنا يقولوا إنك درَسْت أي تعلمت أي هذا الذي جئت به عُلِّمت وقرأ ابن عباس ومجاهد: دارست وفسرها قرأت على اليهود وقرأو عليك وقرئ وليقولوا دُرِست أي قرئت وتليت وقرئ دَرَسَت أي تقادمت أي ها الذي تتلوه علينا شيء قد تطاول ومر بنا. والمِدْرَاس والمِدْرَس: الموضع الذي الذي يدرس فيه والمِدْرَس الكتاب والمُدارِس: الذي قرأ الكتب ودرسها وقيل المُدارِس الذي فارق الذنوب وتلطخ بها من الدَّرس وهو الجرب. والمِدْرَاس: البيت الذي يدرس فيه القرآن وكذلك مدارس اليهود، ودارست الكتب وتدارستها ادَّارستها أي درستها وفي الحديث: تدارسوا القرآن، أي اقرؤوه وتعهدوه لئلا تنسوه."[1] وجاء في المعجم الوسيط: " دَرَسَ يدْرُسُ دَرْساً والكتاب ونحوه درسا ودراسة قرأه وأقبل عليه ليحفظه ويفهمه، دَرّس الكتاب ونحوه درسه والمدرّس كثير الدرس والتلاوة في الكتاب والمِدْرَس الموضع الذي يدرس فيه ج: مدارس والمدرسة مكان الدرس والتعليم."[2] يتضح لنا من هذا التعريف أن درس تحمل عدة معاني فهي تعني القراءة والمكان الذي يدرس فيه إلى غير ذلك من المعاني.

1-2 اصطلاحا: يعني مصطلح مدرسة" وجود جماعة من النحاة، يصل بينهم رباط من وحدة الفكر المنهج في دراسة النحو ولابد أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه، ويتبنون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه. فاستمرار النظرية – أو المنهج–ودوامها عبر السنين شرط أساسي لتكون المدرسة التي لا يمكن أن تستحق هذا الاسم، أو يعترف بوجودها بمجرد مولد

النظرية أو خلقها حتى تعيش ويكتب لها البقاء لبعض الوقت بين المريدين."[3] ومن خلال هذا التعريف نستخلص الشروط التي يجب توفرها في بناء المدرسة ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- وجود جماعة من النحاة يربطهم منهج واحد.
- أن يكون للمدرسة رائد ومؤسس يقودها.
- وجود تابعين لهذا الرائد يتبنون منهجه ويعملون على تطويره.
- وجود مؤلفات لهذه المدرسة، كما أنه يشترط فيها الاستمرارية.

كما نجد بعض التوافق بين التعريف اللغوي والاصطلاحي حيث أنهما يلتقيان في معنى المكان، فالمدرسة في اللغة تعني المكان الذي يدرس فيه، كما أنها تعني في الاصطلاح المكان الذي تتحد فيه جماعة من الدارسين تحت لواء واحد وهذا ما بيناه سالفا.

2-مفهوم المدرسة عند القدماء: من الشائع في كتب الدارسين القدماء أنهم لم يوردوا تعريف مصطلح مدرسة أو مذهب وللتدليل على هذا سنورد مجموعة من آراء الدارسين القدامى لتوضيح هذا الإشكال القائم حول هذين المصطلحين وأول دارس نعرج عليه من القدماء محمد بن سلام الجمحي(139- 231هـ) الذي قال:" وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية."[4] كما أنه ترجم لأبي الأسود الدؤلي وعده مؤسس علم العربية وليحيى بن يعمر ولعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ولأبي عمرو بن العلاء وانتهى بالخليل بن أحمد الفراهيدي."[5] ومن خلال كلام الجمحي يتبين لنا أنه لم ينسب أحدا من النحاة إلى مدرسة معينة وإنما ذكر عبارة من أهل البصرة.

وتلاه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213–276هـ) "الذي عقد في كتابه "المعارف" بحثا لرواة الشعر وأصحاب الغريب والنحو، وترجم بإيجاز لمعظم من اشتهر بهذه العلوم من البصريين والكوفيين وهم: أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ويونس بن حبيب وحماد الراوية وأبو البلاد الكوفي وعياد ابن كسيب والخليل بن أحمد والنضر بن شميل ومؤرج السدوسي وابن كناسة الكوفي وأبو عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي وخلف الأحمر واليزيدي عبد الرحمن بن المبارك وسيبويه وأبو زيد الأنصاري والمفضل الضبي والكسائي والفراء وأبو عمرو إسحاق بن مرار والأخفش الأوسط النحوي سعيد بن مسعدة وابن الأعرابي محمد بن زياد وأبو مهدية الأعرابي."[6] ومن خلال قول ابن قتيبة الدينوري نجده لا يفرق بين النحاة واللغويين كما أنه لم ينسبهم لا إلى الكوفة ولا إلى البصرة إضافة إلى أنه لم يسم أحدا من هؤلاء بمذهب أو مدرسة.

وجاء بعدهما أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (351هـ) وألف كتاب مراتب النحويين الذي بين طريقته في ترجمة الرجال فقال:" فهذه جملة يعرف بها مراتب علمائنا وتقدمهم في الأزمان والأسنان ومنازلهم من العلم والرواية. ورتب أبو الطيب اللغوي كتابه حسب الزمن فبدأ بالبصريين لأن النحو في البصرة كان أقدم نشوءا منه في الكوفة، وترجم لعدد من النحويين البصريين وأولهم أبو الأسود ولم يشر إلى أنهم بصريون، وكانت أول إشارة إلى الكوفة عند ترجمته لأبي جعفر الرؤاسي قال:" وممن أخذ عن أبي عمرو، وأبو جعفر الرؤاسي عالم الكوفة وليس نظير هؤلاء الذين ذكرنا ولاقريب منهم...أخبرنا أبو حاتم قال: كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرؤاسي وهو مطروح العلم ليس بشيء. وذكرهم مرة أخرى

عند كلامه عن ابن محيصن فقال: وكذلك ابن محيصن كان يحسن شيئا يسيرا من جليل النحو فسقط، وكان من أهل مكة واسمه محمد، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون أن كثيرا من علمهم وقراءتهم مأخوذ عنه، وكان أول ذكر للبصرة في ترجمة يحيى بن يعمر وهو قوله: ولا يذكر أهل البصرة يحيى بن يعمر في النحويين وكان أعلم الناس وأفصحهم."[7] فأبو الطيب اللغوي من خلال قوله هذا لم ينسب النحاة الذين أوردهم إلى مذهب أو مدرسة، لكنه ذكر عبارة أهل البلد حيث " أن أول ذكر لعلماء الكوفة كان بعد ترجمته للرؤاسي وعاصم وابن محيصن من الكوفيين."[8] وبالإضافة إلى هذا فإن أبا الطيب اللغوي لم يخرج على مثل هذه التسميات في كتابه حيث أنه يسمي نحاة الكوفة" الكوفيين" أو أهل الكوفة ويسمي نحاة البصرة أهل البصرة والبصريين وعلماء البصرة، ولم يسم نحاة البصرة بالمدرسة البصرية كما أنه لم يسم نحاة الكوفة بالمدرسة الكوفية، وهؤلاء المؤرخون نسبوا النحاة إلى البلد: البصرة فهم أهل البصرة وعلماء البصرة والبصريون أو الكوفة فهم أهل الكوفة أو علماء الكوفة أو الكوفيون.

والدليل على أنهم كانوا ينسبون هؤلاء النحاة إلى البلد ولم ينسبوهم إلى مدرسة أو مذهب أن أبا الطيب اللغوي ختم كتابه بقوله:" ولا علم للعرب إلا في هاتين المدينتين."[9] وألف بعده" أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (284-368هـ) كتاب أخبار النحويين البصريين اقتصر فيه على نحاة البصرة وسماهم البصريين أو من أهل البصرة أو من مشهوري نحويي البصرة."[10] والملاحظ في قول السيرافي أنه كسابقيه لم يستعمل مصطلح مدرسة أو مذهب، فقد عبر عن نحاة البصرة بالبصريين أو أهل البصرة.

كما نجد أبا بكر محمد بن الحسين الزبيدي المتوفى(379هـ) أول من رتب كتابه ترتيبا واضحا بحسب هذه المجموعات النحوية المعروفة واتبع فيه النسبة إلى البلدان التي وجد فيها هؤلاء النحاة ولم يسمهم بمدارسهم ومذاهبهم وقد صنفهم" إلى خمسة أصناف ضم كل صنف نحويين ولغويين ثم قسم كل صنف من هذه الأصناف إلى طبقات بحسب التقدم الزمني فكانت البصريين والكوفيين والمصريين والقرويين والأندلسيين ولم يفرد البغداديين بصنف خاص بهم وإنما ذكر من تسموا فيما بعد بهذا الاسم ملحقين بالمبرد من النحاة البصريين أو بثعلب من النحاة الكوفيين[11]، وقد عمل ترتيبهم كالتالي:" أصحاب المبرد ثم أصحاب الزجاج فأصحاب ابن السراج وأصحاب الأخفش علي بن سليمان فأصحاب درستويه وسمى تلاميذ ثعلب " بأصحاب ثعلب"[12] فالزبيدي في مؤلفه هذا لم يشر إلى مصطلح مدرسة أو مذهب خلال ترجمته للنحويين البصريين أو الكوفيين، إلا أنه استعمل كلمة مذهب عندما ترجم لأصحاب ثعلب حيث قال عن أبي موسى الحامض:" كان بارعا في اللغة والنحو على مذهب الكوفيين."[13]

ومما سبق نجد أن الزبيدي هو أول من قسم النحاة إلى مجموعات بحسب البلدان التي عرفوا بها وكان أول من استخدم عبارات مثل مذهب الكوفيين، مذهب البصريين. وجاء بعده أبو عبيد الله المرزباني المتوفى(384هـ) " وقسم كتابه تقسيما آخر معتمدا فيه على البلدان إلا أنه قسمهم ثلاث مجموعات: الأولى ذكر فيها أخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل البصرة ابتدأها بأبي الأسود الدؤلي من النحويين وختمها بالجاحظ وعمر بن شبة من الأدباء، وسمى المجموعة الثانية: أسامي من تضمنهم هذا الكتاب من رواة الكوفة وعلمائها وقرائها، وسمى المجموعة الثالثة أخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل بغداد ومن طرأ عليها من الأمصار أدخل فيها من كان

من السبي ومن كان من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهما وابتدأ هذه المجموعة بالمدنيين وختمها بابن الأنباري أبي بكر وأبي بكر الصولي."[14] والمرزباني في كتابه هذا لم يذكر مدرسة الكوفة أو مذهب الكوفة ولا مدرسة البصرة ولا مذهب البصرة وإنما اقتصر على تسميتهم بعلماء البصرة أو الكوفة أو أهل البصرة وأهل بغداد. وتابع ابن النديم المتوفى(385هـ) التقسيم نفسه إلا أنه سمى نحاة بغداد من خلط المذهبين وقد قسم كتابه إلى مقالات وجعل المقالة الثانية في ثلاثة فنون:

"الفن الأول: في ابتداء الكلام في النحو وأخبار النحويين واللغويين من البصريين وفصحاء الأعراب وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار العلماء ويحتوي هذا الفن على أخبار النحويين واللغويين الكوفيين.

الفن الثالث: في أخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب وقد جعله في ثلاثة أقسام:

1-أسماء جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلطوا المذهبين.

2-أسماء قوم من جماعة بلدان لا تعرف أنسابهم وأخبارهم على استقصاء.

3-الكتب القديمة في أخبار النحويين."[15]

ومن خلال ما سبق نجد أن ابن النديم هو ثاني الدارسين الذين استخدموا كلمة مذهب التي سبقه إلى استعمالها الزبيدي في أثناء ترجمته للنحاة واللغويين، كما أن ابن النديم أيضا استخدم الكلمة في ترجمته للنحاة واللغويين. ومن الذين أرخوا للنحو والنحاة نذكر أبا البركات الأنباري

المتوفى(577هـ) حيث أنه اتبع في ترتيب الأشخاص في كتابه نزهة الألباء في طبقات الأدباء التسلسل الزمني دون أن يهتم بالمترجم له إن كان بصريا أو كوفيا أو بغداديا أو أديبا أو لغويا " فقد استهل كتابه بعلي بن أبي طالب وأبي الأسود الدؤلي باعتبارهما أول من وضعا النحو وختمه بأبي السعادات ابن الشجري المتوفى (542هـ) ولم يكن يشير في ترجمة النحاة إلى أنهم من البصريين أو الكوفيين إلا في النادر، إلا أنه اتبع أن ينص في الغالب إلى الكوفيين من المتأخرين"[16] فيقول " من أهل البصرة، إمام الكوفيين"[17] أو نحو ذلك. ولم يذكر كلمة مذهب إلا مع البغداديين في الغالب كقوله:" وكان يخلط بين المذهبين أو وكان قيما بمذهب البصريين والكوفيين."[18] ويكتفي بالقول بأنه " أخذ عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد."[19]، ولم يذكر كلمة مذهب مع الكوفيين إلا قليلا."[20] والمتأمل لهذا التأريخ يتضح له أن ابن الأنباري كان لا ينسب النحاة لا إلى مدرسة أو مذهب وإنما إلى البلد، إلا أننا نجده يستعمل مصطلح مذهب في حديثه عن البغداديين وبهذا فإنه يعد ثالث الدارسين في استعماله لمصطلح مذهب. أما القفطي فقد رتب الأعلام في كتابه إنباه الرواة على أنباء النحاة ترتيبا ألفبائيا وكان ينص في خلال ترجمته لهم على "أنه من أهل البصرة أو بغدادي أو ولد بالكوفة ونشأ ببغداد أو نزيل مصر أو نزيل حلب أو من أهل قرطبة أو صاحب ثعلب أو معدود من نحاة الكوفة أو البغدادي النحوي أو دمشقي الدار أو البصري النحوي أو الكوفي النحوي أو من مدينة أبي جعفر أو النحوي المصري أو تابعي بصري إلى غير ذلك من العبارات."[21] والقفطي من خلال هذه العبارات لا نجده يذكر مصطلح مدرسة أو مذهب، وإنما ينسب كل علم إلى البلد الذي نشأ فيه ومثال ذلك أنه ينسب أعلامه إلى البصرة فيقول:

أهل البصرة إلى غير ذلك من العبارات التي نجدها في كتابه. إلا أننا من خلال ما قدمناه سالفا نجد ابن النديم يستخدم كلمة مذهب في حديثه عن البغداديين معبرا عن ذلك بقوله من خلط بين المذهبين أو مالوا إلى المذهب الكوفي أو كان قيما بمذهب الكوفيين والبصريين. وعليه فإن الذي يمكننا استخلاصه أن القدماء لم يأتوا على ذكر مصطلح مدرسة في مصنفاتهم وإنما ذكروا كلمة مذهب والذين أتوا بمصطلح مدرسة هم المحدثون.

3-مفهوم المدرسة عند المحدثين: يعود تحديد مصطلح مدرسة إلى الدارسين المعاصرين حيث أننا نجد بروكلمان يحدد هذا المصطلح بقوله:" وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس البصريون والكوفيون ومن مزجوا بين المذهبين من علماء بغداد."[22] ومن خلال قول بروكلمان يتضح أنه يريد بكلمة مدرسة مجموعة النحاة المنتمين إلى بيئة واحدة. وتبعه في هذا "جوتلد فايل الذي سماها المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية."[23] كما استعمل المحدثون هذه الكلمة وأول من استعملها من الدارسين العرب مهدي المخزومي في كتابه مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، كما ألف شوقي ضيف كتابا سماه المدارس النحوية وألف إبراهيم السامرائي كتابا سماه المدارس النحوية أسطورة وواقع، وبهذا فقد ظلت كلمة مدرسة تعني مجموعة النحاة الذين كونوا درسا نحويا في بيئة معينة.

ومما تجدر الإشارة إليه هو تلك التقسيمات المتعددة التي شاعت ونذكر منها: المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية والمدرسة المصرية والمدرسة الأندلسية إلى غير ذلك من التسميات.

وشرع المعاصرون في تحديد المصطلح ليطلقوه على المراكز المذكورة سالفا، وأول من حدد هذا المصطلح هو مهدي المخزومي في كتابه مدرسة الكوفة وذلك من خلال ترجمته للكسائي حيث قال:" إن الكسائي بمنهجه وأساليب دراسته مدرسة لها خصائصها ومميزاتها فليست المدرسة إلا أستاذا مؤثرا وتلاميذ متأثرين وقد اجتمعوا على تحقيق غرض موحد ونهجوا للوصول إليه منهجا جديدا."[24] فالمخزومي بهذا التعريف نجده يجعل فكر الكسائي مدرسة قائمة بذاتها، حيث جعل لها مميزات وخصائص تنفرد بها كما اعتبر المتأثرين بها أتباعا وهذه بعض الشروط التي يجب أن تتوفر في المدرسة. وتابعه أحمد مكي الأنصاري وهو يتحدث عن الفراء فقال: إن المدرسة اتجاه له خصائص مميزة ينادي بها فرد أو جماعة من الناس ثم يعتنقها آخرون."[25] والأنصاري هنا يذكر لنا شرطين لتحقيق ما يسمى مدرسة وهما أن يكون هناك نظرية ورائد وأتباع. وتبعه في هذا جوتولد فايل في تعريفه للمدرسة حيث قال:" بأنها الاشتراك في وجهة النظر الذي يؤلف الجبهة العلمية ويربط العلماء بعضهم ببعض على رأي واحد."[26] وجوتولد فايل يشترك مع الأنصاري في تحديده لمصطلح مدرسة حيث أنه يجعل اتفاق وجهات النظر كشرط أساسي في تكوين المدرسة. وفي نظر هؤلاء أن مصطلح مدرسة يؤدي معنى المذهب في الدراسات الإسلامية وتحمل معناها المعروف في لغة العرب وقد أدى تحديد مصطلح مدرسة إلى بروز خلافات حول عدد المدارس النحوية وهذا ما سنحاول إثباته من خلال تقسيمات الدارسين للمدارس النحوية.

4-نماذج من تقسيمات الدارسين للمدارس النحوية: لقد تعددت تقسيمات الدارسين للمدارس النحوية فكل يقسمها حسب وجهة نظره، فهذا جوتولد

فايل لا يعترف إلا بالمدرسة البصرية ونجد عليا أبا المكارم ينفي فكرة المدارس النحوية حيث أنه يرى أن منهج الدراسة النحوية واحد في مدنه المختلفة وإنما هناك تجمعات مدنية. كما رأى فريق ثالث أن هناك مدرستين هما البصرة والكوفة ومثل هذا الفريق مهدي المخزومي، ومما تجدر الإشارة إليه هو الخلاف الذي حصل بين الدارسين حول المدرسة البغدادية من منكر لها ومعترف بها وبقي الخلاف قائما حول عدد المدارس النحوية فمنهم من قال بوجود مدرسة واحدة ومنهم من قال بوجود مدرستين ومنهم من قال بوجود ثلاث مدارس ومنهم من قال بوجود أربع ومنهم من قال بوجود خمس مدارس. وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال النماذج التي سنتطرق إليها عند القدماء والمحدثين.

4-1 تقسيم القدماء: أشرنا فيما سبق إلى أن المحدثين هم الذين أتوا بمفهوم المدرسة وأن القدماء لم يعرفوا هذا المصطلح وإنما شاع عندهم مصطلح مذهب إلا أن هذا لم يمنعهم من تقسيم النحاة إلى طبقات وذلك من خلال مؤلفاتهم وسنعرج على نموذجين من مؤلفات القدماء حتى نتبين طريقة تقسيمهم.

4-1-1 تقسيم الزبيدي: إذا تأملنا كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي نجده قسم النحاة واللغويين إلى قسمين: "نحويون بصريون-نحويون كوفيون-لغويون بصريون-لغويون كوفيون-نحويون ولغويون مصريون-نحويون ولغويون قرويون-نحويون ولغويون أندلسيون"[27] والمطلع على هذا التقسيم يجده يخضع للمعيار الجغرافي ولم يخضعه صاحبه إلى الاتحاد في المنهج.

4-1-2 تقسيم السيرافي: أما إذا تأملنا كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافي نجد مؤلفه خصه بالحديث عن علماء البصرة حيث قسمهم إلى طبقات كما هو الحال عند الزبيدي، وبالرغم من أن كتابه مخصص للبصريين إلا أنه " أشار إلى النحويين الكوفيين وإلى النحويين البغداديين الذين تظهر على دراستهم النزعة البصرية، كما أشار إلى النحويين البغداديين الذين تظهر فيهم النزعة الكوفية وإلى بغداديين جمعوا بين النزعتين (البصرية والكوفية) وأشار إلى وجود رجال نحو في كل من العراق وفارس من أمثال: السيرافي-أبو علي الفارسي- الرماني- ابن جني"[28] ومن خلال هذا التقسيم يتضح لنا أنه يخضع للمعيار الجغرافي بدرجة كبيرة حيث أن صاحبه أشار إلى وجود حركة نحوية في بغداد لكنها تحمل في طياتها بذور النزعة البصرية.

4-2 تقسيم المحدثين: أشرنا سابقا إلى أن المحدثين هم الذين أتوا بمصطلح المدرسة وقسموا على إثره الحركة النحوية إلى مدارس فاختلف عدد المدارس بين الدارسين وذلك كل حسب وجهة نظره وسنعرج على بعض تقسيمات المحدثين حتى نتبين الأساس الذي قسمت المدارس على إثره.

4-2-1 تقسيم شوقي ضيف:

قسم شوقي ضيف المدارس النحوية إلى خمس مدارس هي: المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية والمدرسة الأندلسية والمدرسة المصرية وقد أوضح تقسيه هذا بقوله:" ولعل هذه أول كرة تبحث فيها المدارس النحوية بحثا جامعا وهو بحث يرسم في إجمال الجهود الخصبة لكل مدرسة وكل شخصية نابهة فيها وكان طبيعيا أن أبدأ بالمدرسة

البصرية لأنها هي التي وضعت أصول نحونا وقواعده ومكنت له...وقد ذهبت إلى أن الخليل هو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة النحوية ولعلم النحو العربي بمعناه الدقيق... وأخذت أبحث نشاط المدرسة الكوفية ولاحظت أنه بدأ متأخرا عند الكسائي...وتلميذه الفراء... ومضيت أبحث نشاط المدرسة البغدادية وكانت قد ترامت عليها ظلال خدع كثيرة... والنهج القويم للمدرسة البغدادية القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع فتح أبواب الاجتهاد... وانتقلت أبحث في المدرسة الأندلسية متابعا نشاطها النحوي ولاحظت استظهار نحاتها منذ القرن الخامس الهجري لآراء أئمة النحو السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين.... وبحثت أخيرا في المصرية ملاحظا أنها كانت في أول نشأتها شديدة الاقتداء بالمدرسة البصرية ثم أخذت تمزج من القرن الرابع بين آراء البصريين والكوفيين وضمت سريعا إلى تلك الآراء آراء البغداديين."[29]

والذي يمكننا استخلاصه من تقسيم شوقي ضيف أنه كان يسمي كل منطقة أقيمت بها دراسة نحوية بمدرسة نحوية وهذا مخالف لما رأيناه سابقا حيث أن من شروط وجود المدرسة هو وجود النظرية والرائد اللذين يلتف حولهما التابعون، كما يشترط اختلاف المنهج بين المدرسة والأخرى والاختلاف الموجود بين هذه المدارس هو اختلاف في الجزئيات.

وشوقي ضيف في رأينا قسم مدارسه على أساس الانتماء الجغرافي فهو يجعل مثلا ابن الأنباري من نحاة الكوفة غير أنه في تفكيره ومنهجه بصري والدليل على ذلك كتابه الإنصاف في مسائل الخلاف الذي انتصر فيه عما يزيد عن مئة مسألة بصرية والأمثلة في الكتاب كثيرة.

4-2-2 تقسيم خديجة الحديثي: اعتمدت خديجة الحديثي في تقسيمها للمدارس النحوية على مصطلح مذهب بدل مصطلح مدرسة وخصت هذه التسمية البصريين والكوفيين حيث ابتدأت " بالكلام على البيئة ونشأة النحو فيها وتطوره وأهم خصائصه وأشهر رجاله ثم الوقوف على أشهر الدارسين، فالبصرة مثلا يقف في قمة رجالها الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه والمبرد، والكوفة يقف على رأس نحاتها الكسائي والفراء وثعلب، وبغداد يقف على ذروة رجالها أبو بكر بن الأنباري وابن كيسان. أما مصر ففيها من النحاة خلق عظيم وكان الوقوف على أبي جعفر النحاس والسيوطي لأنهما يمثلان خلاصة الدرس النحوي فيها وفي الشام استقر نحاة وردوا إليها وعرفت بهم وكان أبو علي الفارسي وابن جني وابن خالويه يمثلون النشاط النحوي في أوجه. وفي الأندلس كان ابن مضاء القرطبي الذي ثار على النحو المشرقي وأبو حيان الذي اتخذ من المذهب الظاهري منهجا له في دراسة النحو واللغة، وكان ابن الوزان يمثل البيئة المغربية والدرس النحوي واتجاهه فيها."[30] والملاحظ في تقسيم الحديثي أنها لم تستعمل مصطلح مدرسة إلا في حديثها عن النحو في مصر حيث خصصت له عنوانا هو مدرسة مصر النحوية. كما أنها من خلال تقسيمها هذا تعتبر ابن الأنباري بغداديا وأنه ظل كوفيا بالرغم من وجود سمات الفكر البصري في مصنفاته، كما أنها تعتبر ابن جني من نحاة بغداد إلا أنها تصرح بأنه ظل بصريا. ويبقى تقسيم الحديثي في الكثير من جوانبه خاضعا للمعيار الجغرافي شأنه في ذلك شأن التقسيمات التي سبقته.

4-2-3 تقسيم التواتي بن التواتي: ابتدأ التواتي بن التواتي تقسيمه للمدارس النحوية بالكلام عن " مدرسة البصرة ومميزاتها ونشأة النحو فيها

وأهم أعلامها في مجالات اللغة المختلفة من نحو وقراءات متطرقا إلى مؤلفات النحويين بالبصرة مركزا على أهم مؤلف ألا وهو كتاب سيبويه.

كما تعرض إلى منهج البصريين في دراسة النحو وكذا إلى أهم الأصول التي تقوم عليها مدرسة البصرة، ثم انتقل إلى الحديث عن مدرسة الكوفة مبينا منهجها في دراسة النحو وأهم خصائص المذهب الكوفي منتهيا بالحديث عن أهم الفروق بين المدرستين. ثم تحدث عن نحاة بغداد معتبرا إياهم حلقة جمعت ما بين النزعات الكوفية والبصرية، وقد اعتبر التواتي بن التواتي عليا بن عيسى الرماني وأبا على الفارسي (الحسن بن أحمد) وأبا سعيد السيرافي (الحسن بن عبد الله) مدرسة مستقلة اصطلح على تسميتها بالمدرسة التجديدية الخليلية. كما تطرق التواتي بن التواتي إلى الحديث عن الحركة النحوية في المغرب العربي ويستهلها بأبي علي القالي ثم ينتقل إلى مدرسة الأندلس ويعرض لترجمة ابن الطراوة وأهم آرائه في النحو وكذا إلى أهم إنجازاته في المجال النحوي. ويختم تقسيمه بالحديث عن الدرس النحوي في المغرب الأوسط(الجزائر) ويعرض لأشهر نحاتها ويحصرهم في اثنين هما: ابن معطي والحسن بن علي التيهرتي إضافة إلى أعلام آخرين كانت لهم إسهامات في الدرس النحوي، ويختمهم بعلامة الجزائر اللساني المعروف عبد الرحمن الحاج صالح وأهم ما أتى من جديد والمتمثل في نظريته المعروفة بالنظرية الخليلية."[31] وما نستخلصه من تقسيم التواتي بن التواتي أنه حصر أعلام المدرسة الكوفية في سبع وهم" ابو جعفر الرؤاسي ومعاذ الهراء والكسائي والفراء وهشام الضرير والأحمر وثعلب."[32]

ويفهم من تقسيمه أنه لا يعتبر نحاة بغداد مدرسة مستقلة وإنما يصطلح عليهم مصطلح حلقة، كما انه أضاف مدرسة أخرى اصطلح عليها المدرسة التجديدية الخليلية والتي رأى بأنها جاءت لتصحح الزلات التي وقع فيها أصحاب الخلط بين المدرستين. أما عن الجديد في تقسيم التواتي بن التواتي هو حديثه عن الحركة النحوية في الغرب والمغرب الأوسط (الجزائر) بصفة خاصة متطرقا إلى أهم أعلامها من أمثال ابن معطي والتيهرتي والحاج صالح. ويبقى تقسيم التواتي بن التواتي خاضعا للمعيار الجغرافي شأنه في ذلك شأن التقسيمات التي سبقته.

ومما رأيناه سابقا في شروط تأسيس المدرسة أنها يجب أن تبنى على منهج معين وأن يكون لها تابعون وأن يكون لها رائد ومؤلفات تعضد آراءها ونجد كل هذه الشروط تتوفر في المدرسة البصرية وهي التي يمكن عدها مدرسة قائمة بذاتها لكونها استمرت إلى يومنا هذا، إلا أننا لا ننكر جهود الكوفيين في النحو حيث كانت لهم إسهامات قيمة في هذا المجال ويمكن اعتبارها مدرسة بعد المدرسة البصرية وذلك لاحتوائها على جملة من الشروط الواجب توفرها في المدرسة. أما عن الاختلاف في المنهج كما يزعم البعض فهو في رأينا اختلاف في الجزئيات لا في المنهج نفسه والدليل على ذلك مصنف ابن الأنباري الموسوم ب:" الإنصاف في مسائل الخلاف" الذي رصد فيه المسائل الخلافية الجزئية غير المتعلقة بالمنهج.

وفي رأينا نجد الدارسين العرب قد تأثروا بالغرب في محاولتهم تشييد مدارس نحوية عربية لكن الذي تجدر الإشارة إليه هو أن الدارسين الغربيين اعتمدوا وحدة المنهج في تقسيمهم للمدارس اللسانية بعكس الدارسين العرب فإنهم اعتمدوا وحدة البيئة أساسا لتقسيماتهم.

الخاتمة:

بعد التطرق إلى مفهوم المدرسة عند القدماء والمحدثين وإلى عرض نماذج من تقسيمات الدارسين للمدارس النحوية نخلص إلى ما يلي:

– أن الدارسين القدماء لم يعرفوا مصطلح مدرسة في دراساتهم حيث كانوا ينسبون النحاة كل إلى بيئته، وكان أول ظهور لهذا المصطلح مع المحدثين ويعد مهدي المخزومي السباق إلى ذلك من الدارسين العرب.

– اتخاذ المعيار الجغرافي أساسا لتقيسم المدارس النحوية.

– خضوع المدرسة البصرية لكافة الشروط التي يجب توفرها في المدرسة ثم تليها المدرسة الكوفية بدرجة أقل.

– استمرار الفكر البصري إلى يومنا وهذا أكبر دليل على أن المدرسة البصرية هي بحق مدرسة لأن من شروط تكوين مدرسة الاستمرارية.

– تأثر الدارسين العرب بالغربيين ومحاولة مجاراتهم في تأسيس مدارس في البلاد العربية.

– اختلاف البصريين والكوفيين في المسائل الجزئية لا في منهج الدراسة والدليل أن النحو الكوفي يعتمد في كثير من جنباته على النحو البصري وأن أغلب أعلام المدرسة الكوفية تتلمذوا على أيدي البصريين.

والذي نخلص إليه أن تقسيم الدارسين العرب للمدارس النحوية خاضع للمعيار الجغرافي بالدرجة الأولى، فالمدارس التي ذكرها الدارسون لا تختلف من حيث المنهج وإنما في بعض الجزئيات، فلو نظرنا في تقسيمهم

لوجدنا أن كل بيئة قامت فيها دراس نحوية تمثل بالضرورة مدرسة ولكن هذا تصور مغاير لمفهوم المدرسة المتعارف عليه.

الهوامش:

[1]- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، 1994، مج6، ط3، مادة درس.

[2]- مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية مصر، 2004، ط4، ص:279-280.

[3]- عمر أحمد مختار، البحث اللغوي هند العربن عالم الكتب القاهرة، 1988، ط6، ص:128.

[4]- الجمحي بن سلام، طبقات فحول الشعراء تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 1984، ص: 12.

[5]- المصدر نفسه، ص:12 وما بعدها.

[6]- الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، تح: ثروت عكاشة، دار المعارف القاهرة، ط4، ص: 540 وما بعدها.

[7]- الحلبي أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، مراتب النحويين، تح: أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها القاهرة، ص:24-25.

[8]- المصدر نفسه، ص: 26.

[9]- المصدر نفسه، ص: 98.

[10]- السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبد الله، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني، محمد عبد المنعم خفاجي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1955، ص: 18-25-39-41.

[11]- الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة مصر، ط3، ص: 111وما بعدها.

[12]- المصدر نفسه، ص: 151 وما بعدها.

[13]- المصدر نفسه، ص: 152.

[14]- الحديثي خديجة، المدارس النحوية، دار الأمل أربد الأردن، 2001، ط3، ص: 11.

[15]- ابن النديم محمد بن إسحاق، الفهرست، تح: مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر تونس، 1985، ص: 189 وما بعدها.

[16]- الحديثي خديجة، المدارس النحوية، ص: 12.

[17]- ابن الأنباري أبو البركات كمال الدين بن عبد الرحمن بن محمد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة الأردن، 1985، ط3، ص: 162 وما بعدها.

[18]- المصدر نفسه، ص:178-185.

[19]- المصدر نفسه، ص: 161-185.

[20]- المصدر نفسه، ص: 187.

[21]- ينظر القفطي جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، 1986، ط1، ج2، ص: 10-1-18، ج3، ص: 23-27-31.

[22]- بروكلمان كارل، تاريخ الادب العربي، تح: عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط4، ص: 124-125.

[23]- الحديثي خديجة، المدارس النحوية، ص:13.

[24]- المخزومي مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1958، ط2، ص:106.

[25]- الحديثي خديجة، المدارس النحوية، ص: 14.

[26]- االمرجع نفسه، ص: 14.

[27]- الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص: 315 وما بعدها.

[28]- السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص: 5 وما بعدها.

[29]- ضيف شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف القاهرة مصر، ص:5 وما بعدها.

[30]- الحديثي خديجة، المدارس النحوية، ص:6.

[31]- التواتي بن التواتي، المدارس النحوية، دار الوعي الجزائر، 2008، ط2، ص: 149 وما بعدها.

[32]- المرجع نفسه، ص: 101.